مسألة اصلاح النسل

بين الادب والعلم

ان في الصبغة العلمية التي اصطبغت بها مسألة اصلاح النسل عندظهور نظرية التطور مايوهمنا ان البشر قديماً لم يفكروا في تحسين نسلهم . ولكن الحقيقة خلاف ذلك . فهم وان لم يجروا على قواعد علمية كالتي جرى عليها اليوجنيون فى عقد جمعياتهم ونشر ابحاثهم . فلقد ضربوا الامثال الاجتماعية والادبية وتناقلوا مابينهم الابيات الحكمية التي وجدوا فيها مايوضح لهم مبتغاهم ويدلهم على كيفية ايجاد نسل ارقى مما سبقه .

وقد عني قدماء الحكماء بهذه المسألة ، فاشار بها افلاطون في جمهوريته وذلك بانتخاب من امتازوا بالقوة والجمال والذكاء والصحة دون غيرهم وتسهيل اسباب التناسل لهم اكثر ممن سواهم ، حتى يعظم نسلهم ويرث ابناؤهم مميزاتهم الجسمية والفكرية . وكان يبيح قتل من ولد من الاطفال ضعيفاً مريضاً حتى لاينشأ وهو بما فيه من السقم والضعف . فيصير عالة على غيره وينسل نسلاً ضعيفاً

وفضل توماس مور (١٤٧٨ — ١٥٣٥) فى طوباه اذا نشبت الحرب ان يزج اسوء الناس واحطهم مواهباً فى سعيرها ليكونوا طعمة لها وتنجو البشرية من ادرانهم .

وقال صاحب احلام الفلاسفة: ودوكان توقيديد ينعي على الناس زواجهم جزافا من غير انتقاء ويقول اننا نعني بتأصيل الخراف والخيول اكثر مما نعني بالانسان . وان كرام الناس اقل من كرام الخيل لان لكل من الناس الحق في التناسل .

ويشابه (توقيديد) فى هذا الرأي (يثوجنس) الذي كان يستغرب سعي الناس في تأصيل الحيوانات دون تأصيل نوعهم البشري .

وهذا الادب العربى على قلة تعمقه في الغوص على حقائق الحياة وندورة تغلغله فى شؤن البشر الروحية والاجتماعية لايصعب على من ينقب فيه ان يجد ما يملأ عدة صفحات من الحكم والامثال والابيات السائرة التى القاها حكماء العرب فى الجاهلية والاسلام او انشدها شعراؤهم المجربون واودباؤهم المختبرون الذين اختلطوا بالناس واختبروهم ولمحوا طرق اصلاحهم ومن نظر في الشعر العربى سيما ماقيل منه في الجاهلية ذلك الشعر الذي هو جعبة معارفهم وديوان اختباراتهم يجد انهم قد اشاروا الى فعل (الوراثة التناسلية) واثرها فى اخلاق الناس ومواهبهم . والى ان المرء مطبوع على ماورثه من ابويه من الخصال والفعال ان خيراً فخير وان شراً فشر ، فمما قال زهير :

وما يفعلوا من فعل صدق فانما * توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطي الاوشيجة * وتغرس الا فى منابتها النخل

وقال بعض شعرائهم :

وإن احق الناس ان لا تلومه * على الشر من لم يفعل الخير والده
اذا المرء الفى والديه كليهما * على اللؤم فاعذره اذا خاب رائده

فيظهر ان الشاعر هنا مؤمن بوراثة الصفات والمواهب من الاب الى الابن ، ولذلك فقد اشار بعدم ملامة المسيء اذا توارث سوء خصاله من والديه ، وطلب العذر والسماح له ، لانه اذا كان قد أتى بجنحة او جناية فذلك لان اللؤم فيه وراثة من والديه ولم يكتسبه اكتسابا حتى تصح عقوبته .

وسمع عمرو بن ابي ربيعة بعضهم يقول :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا * يغنيك مورثه عن النسب

فقال : « اسكت فلا فخر ثمت » ، ثم انشد قائلا :

لافخر الا فخار منتخب * يسمو بام كريمة وأب

فهذا الشاعر لا يقنع بما يتحلى به المرء من الادب وحسن الخصال ، ان لم يولد من ابوين كريمين يورثانه مميزات كرم اصلهما ومنبتهما .

وفى تفاخر العرب بكرم انسابهم وطيب اروماتهم ما يدل على انهم قد لمحوا شيئاً من آثار (الوراثة التناسلية) وعرفوا فعلها . واورد الراغب الاصبهاني في كتابه محاضرات الادباء الحكاية الآتية :—

« خرج قتيبة متنزهاً فلقي اعرابياً ، فقال ممن الرجل ؟ فقال من عبد قيس فقال نسب مهزول ، فقال الاعرابى ممن انت ؟ فقال من باهلة . فقال واويلاه واهولاه ، أمثلك يقول نسبي مهزول وانت بين الدعة والخول ؟ فقال قتيبة يا اعرابي أيسرك أنك امير وانك باهلي ؟ فقال لا ، ولا خليفة الله في ارضه . فقال ولك حمد النعم ؟ فقال لا ، ولا ما طلعت عليه الشمس . فقال وانك تدخل الجنة ؟ فاطرق ثم رفع رأسه ، فقال ان كان ولابد ، فعلى ان لا تعلم بذلك اهل الجنة . فضحك قتيبة ووصله » .

فليس تأفف هذا الاعرابي وتبرمه ناتجا من تعصبه لنسبه ، كلا — وانما اشمئزازاً من خساسة نسب باهلة . فلو دعي الى الالتحاق بنسب ربيعة او كندة او مضر او غيرها من القبائل التي اشتهرت بكرامة انسابها ، على ان لا يعطى الا قليلا مما مناه به (قيبة) لرضى . ولكن ما اشتهر عن باهلة من لؤم الانساب حال دون قبوله اي منحة ، ولو اعطيت له الجنة اذا عرف اهلها انه باهلي .

بل انك اذا نظرت الى مهاجاة فطاحل الشعراء وقولهم بعضهم لبعض مثل الراعى وجرير والفرزدق وغيرهم تجد معظمها فى ذم آباء واجداد المهجو،

لا فى ذم شخصه لانه قد وقر في اذهانهم ورسخ في عقولهم ان كرم نسب الآباء وطيب ارومة الاجداد يؤدي حتماً او غالباً الى اتصاف ابنائهم واحفادهم بحسن الخصال والمواهب . وان من تسلسل من آباء ذميمي الافعال والمواهب لايكون رديئى السيرة دنس السريرة .

لما شرع جرير والفرزدق فى هجاء أحدهما الآخر انقسم الشعراء والادباء الى قسمين : قسم انتصر لجرير وفضله على الفرزدق . وقسم انتصر للفرزدق وفضله على جرير . وكان فى جملة من انتصر للفرزدق راعى الابل (اوالراعى) وهو من كبار الشعراء النابغين في العصر الاموي ، فالتقى به جرير فى (المربد) سوق البصرة الشهير . وكان الراعى قد هجاه قبل ذلك بابيات منها :

رأيت الجحش جحش بني كليب * يتمم حوض دجلة ثم آبا

فقال له جرير معاتباً : « يا ابا جندل ان قولك يستمع ، وانك تفضل الفرزدق علي تفضيلاً قبيحاً ، وانا امدح قومك وهو يهجوهم ، وهو ابن عمي ويكفيك من داك اذا ذكرنا ان تقول كلاهما شاعر كريم ، ولا تحمل مني ولا منه لائمة » فلم يجبه الراعى ، ولكنه لحق ابنه ورفع عصاه وضرب عجز بغلته . وخاطب ابنه قائلاً : « لا اراك واقفاً على كلب من بنى كليب كانك تخشى منه شراً وترجو خيراً »

فرفست البغلة جريرا فوقعت قلنسوته عن رأسه فانصرف الى منزله مغضبا على الراعى . فلما فرغ من صلاة العشاء قال : « ارفعوا لي باطية من نبيذ واسرجوا لي » فاحضروا له باطية النبيذ واسرجوا له فاخذ يشرب ويجهد قريحته في النظم ؛ حتى كان السحر وقد نظم ثمانين بيتاً فى هجاء الراعى [1] وانشد هذه الابيات فى المربد وكان اذ ذاك مجمع الشعراء والادباء وذوي الفهم والعلم .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٦٩

وكان اشد الابيات هجاء وتقريعا قوله يخاطب الراعى :

فغض الطرف انك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فهنا ترى ان جريرا لم يهج الراعي نفسه ، بل طعن عليه انتمائه في نسبه الى نمير . لان نمير في اعتقاده ليس له من شرف النسب مايسمو به اناؤه . ومما يدل على شدة هذا الهجاء ان كل من سمع القصيدة من العرب فى ذلك الوقت قال : « ولا يفلح النميري بعد ذلك ابدا »

قال صاحب تاريخ آداب اللغة العربية : « وقد لا يفهم القاريء قوة الهجاء اذا لم يعلم ان كعباً وكلاباً ونميراً ثلاثة ابطن من عامر بن صعصعة ، من قيس . فجرير فضل كعبا وكلابا على نمير مع انهما اخواه » .

ومن ابيات الفرزدق السائرة اثناء مهاجاته لجرير قوله :

فيا عجباً حتى كليب تسبني كأن أباها نهشل ومجاشع

ففى كل هذا اشارة الى الطعن فى من تحدر من نسب وضيع واصل دنس غير شريف ، كانه قد تيقنوا انه لا ينجب . فالفرزدق يرى من العجب عنده ان تسبه بنو كليب ، مع ان نسبهم لايتصل بنهشل ومجاشع ومن يدانيهم في شرف الاصل وطيب الارومة .

واذا التفت الى مباهلات العرب ومنافراتهم ومفاخراتهم تجد ان اول ما يفتخرون به هو شرف النسب ، واول مايطعنون به هو خساسة الاصل وذمامة المحتد . ولولا ضيق المجال لاتينا بأمثلة كثيرة تؤيد قولنا هذا .

وبالخلاصة نقول : انك اذا نظرت في حكمهم وامثالهم واشعارهم تجد صراحة ما بعدها صراحة فى تفضيل شرف المحتد وكرم الاصل ، واحتقار لؤم النسب وخموله . كانهم قد تأكدوا ان صلاح الابناء وعدمه يرجعان الى ما ورثوه من آبائهم .

اما فى العصر الراهن فقد ظهرت نظرية التطور على يد دارون سنة ١٨٥٩ ، فاصطبغت بظهور هذه النظرية مسألة اصلاح النسل صبغة علمية . وأخذ العلماء النشوئيون يضعون التراسيم والقواعد لايجاد انسان راق في المستقبل لا على اساس من الخيال والوهم بل على اساس من العلم والتجربة مخالفين بذلك ما كان يفعله العلماء (الطوبويون) فى احلامهم وتخيلاتهم ولسنا ننكر ظهور بضعة تخيلات حديثة على شكل (طوبى) . مثل طوبى موريس ، وطوبى المسترو يلزو برناردشو[1] . ولكنها كلها قائمة على قاعدة علمية سهلة التطبيق .

ولما كان من الجدير بنا ان نبحث في مسألة صلاح النسل بحثا علمياً مقتبسا من التجارب والادلة العلمية الحديثة — بعد هذا التمهيد — فقد لخصناها بما يأتي[2] :

ان اهم ما تتطلبه تلك المسألة كما يؤخذ من آراء العلماء امر واحد وهو الانتخاب الجنسي او تعقيم البلهاء وتكثير نسل الاذكياء .

اما الانتخاب الجنسى وهو ما يدعي اليوم فى الغرب بـ (علم اليوجنية) فالغاية منه تكثير اصحاب الكفاءات الراقية والمقدرات الفكرية السامية بين الطبقات البشرية . لكي تقل البلاهة بين الامم وتقتلع جرثومتها على ممر الاجيال شيئا فشيئا .

ويستند هذا العلم الى ان الانسان طالما اعتنى بالحيوانات المستأنسة واجتهد في تأصيل ما يلائم مشيئته منها ويوافق رغبته كالخيل والبقر والكلاب وغيرها فارتقت تلك الحيوانات التى اصلها دون غيرها . وما زالت تتدرج في الرقي

(١) تجد شرحها في كتاب احلام الفلاسفة لسلامه موسى .

(٢) نقتطف هذا التلخيص من مقال نشر لنا في جريدة الفيحاء عدد ١٠

حتى تعددت انواعها وتشعبت فروعها . فنشأت من الكلاب والحمام وغيرها اجيال جديدة لم تكن من ذي قبل .

فيقول علماء اليوجنية اليوم انه كما أخذ الانسان اليوم بانفاق الكثير من وقته وما له على تأصيل الحيوانات وانتخابها والاعتناء بتربية ذوات الكفاءات الجسمية منها واستغلال ما بتلك الكفاءات من المنافع المادية . فيجب الآن ان تقوم الحكومات العصرية بنظير هذا العمل . وذلك بان نعتنى بأولياء العقول والابدان فتسهل لهم اسباب التناسل والازدواج لكى يكثر نسلهم وتنتفع عند ذلك البشرية من استغلال كفاءاتهم العقلية . على ان تقوم من جهة اخرى بتعقيم البلهاء ومنعهم من الازدواج لكي لا يعقبوا نسلاً يرث بلاهتهم فيكون عقبة فى سبيل رقي الامم .

وهنا يلاحظ القارىء ان للوراثة يداً قوية في اعاء الذكاء او البلاهة . وان العلماء قد اتفقوا على ان النسل الذكي انما ينشأ عادة من آباء من اذكياء كما ان اصحاب البلاهة وقلة الفطنة هم المولودون من اناس بلهاء ضعيفي الكفاءات العقلية .

ولكن تعقيم البلهاء ومنعهم من الازدواج ليس من الامور السهلة التى يتيسر للحكومات حلها لمحو البلاهة من الامم . فهناك عقبة كأداء تعترض ذلك المشروع الخطير وهى خفاء البلاهة فى بعض الاشخاص بخلاف وضوحها فى البعض الآخر . فان البلها قسمان : قسم بلاهته ظاهرة تتجلى لك عند اول مخاطبته او معاشرته . والقسم الآخر بلاهته مضمرة لا يتيسر لك الوقوف عليها بمجرد المخاطبة او المعاشرة . وان القسم الثانى هم سبعة في المائة من مجموع العقلاء .

ولهذا السبب فلسوف يدرك القاريء ان محو البلاهة من الامم ليس من

المشاريع الهينة . بل انه يقتضى اجيالاً عديدة تستغرق الآلاف من السنين . ناهيك بصعوبة الفحص ومشقة الانتخاب الجنسى الذي يجب مراعاته فى مثل هذا العمل .

ولعلنا لانخطئ اذا قلنا :

ان انتشار الدعوة الى تعقيم البلهاء يرجع الى نظرية التطور كما اسلفنا . فقد شاعت هذه النظرية بين الغربيين شيوعا عظيما . وقد تشبعت مخيلاتهم بها ايما تشبع فتوجهت افكارهم الى وجوب ايجاد انسان ارقى من الانسان الحالي بعقله وجسمه . وحجتهم فى ذلك انه مادام الانسان حيوان يسري عليه مفعول الطبيعة كما يسرى على سائر الحيوانات المستأنسة . وما دمنا نرى ان الكثير من الحيوانات التي اعتنينا بتأصيلها قد جاء نسلها طبقاً لرغباتنا فيجب اذاً الشروع بتأصيل الانسان نفسه لكي يعقب لنا نسلا ذكياً قويا يمتاز عن الانسان الحاضر بمقدرة جسمية وفكرية تفوق مقدرته الراهنة . وذلك بواسطة الانتخاب الجنسى القائم على تعقيم المعتوهين واصحاب البلاهة وذوى الامراض ايضاً ومنعهم من الازدواج .

فأهم شروط الزواج التي يدعو بها اليوم علم اليوجنية (او علم تأصيل الامم والشعوب) هى ان يكون الاقتران مبنياً على الانتخاب الجنسى . وان يكون اول الاشياء التى تراعي فى ذلك هو الكفاءة البدنية والفكرية ثم السلامة من الامراض الوراثية والمعدية . فلا يؤذن حينئذ للاغبياء والمرضى بالازدواج والتناسل ؟

القورنة : عبدالغني شوقى